كلية العلوم الإسلامية

قسم العقيدة والدعوة والفكر **المحاضرة الثالثة**

مدرس المادة: أ.م.د. أيسر فائق جهاد

المرحلة : الأولى الكورس الأول

المادة: التصوف والأخلاق

عنوان المحاضرة (العوامل المؤثرة في نشأة التصوف والأدوار التي مر بها)

المصادر: حقائق عن التصوف : الشيخ عبد القادر عيسى

الرسالة القشيرية: الإمام أبو القاسم القشيري ومصادر أخرى في التصوف والسلوك

أولاً: العوامل المؤثرة في نشوء التصوف:

هناك عدة عوامل أدت إلى ظهور التصوف على الساحة الدينية كان من أهمها ما يأتي:

١- فساد الأوضاع الإجتماعية وطغيان الحياة المادية وضعف العمل الروحي فبعد أن اتسعت الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات وجد بعض المسلمين أنفسهم أمام ألوان من الحضارات وضروب من الترف تغريهم وتفتنهم، وقد اعتاد الكثيرون منهم على حياة الترف وأمعنوا أنفسهم في الإنغماس في الشهوات، فإذا هم يحيون حياةً رقيقة تختلف كل الإختلاف عن الحياة الأولى في زمن الرسول ﷺ ولم يكن ذلك ما رسمه الإسلام لهم ولا ما أراده الرسول الكريم ﷺ والخلفاء الراشدون، فكان لا بد من رد فعل فنشأ التصوف تعبيراً عن ثورة الوجدان الداخلي على فساد الأوضاع الإجتماعية القائمة. فأصبحت الحاجة ماسة إلى منهج عملي روحي يربي النفوس ويزكيها ويعيدها على منهج الرسول والصحابة بعد أن تضائل العمل الروحي وعزف الناس عن دينهم وركنوا إلى الدنيا لذلك لم نجد الدعوة إلى التصوف في عصر صدر الإسلام إلأ بعد عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد علوش : قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام، وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين ؛ والجواب عن هذا :إنه لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول،

لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول اللهﷺ ، فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمَّة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمرٍ هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي الُقح، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر؛ حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة، دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسولﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم .وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول اللهﷺ قوله :((**خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه**)).

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض" الميراث " وغيرها..

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان يجب أن يكون سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى.

وقال ابن خلدون في مقدمته: وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .

ويعنينا من عبارة ابن خلدون الفقرة الأخيرة، التي يقرر فيها أن ظهور التصوف والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني للهجرة، فإن ذلك من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبادة اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية.

أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري (رحمه الله)، فقد سئل عن أول من أسس التصوف ؟ وهل هو بوحي سماوي ؟ فأجاب:

أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبيﷺ بعد ما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: **((هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم))** .

فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة :**((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))** .

٢- الخلاف مع بعض الفقهاء، حيث أن الصوفية يعتبرون أن بعض رجال الفقه قد صبغوا الدين بصبغة ظاهرية وجعلوه مجرد رسوم وأشكال ولم يعكفوا إلاّ على بيان الحلال والحرام مكتفين بظاهر العلم والعمل مقتصرين في ذلك على الجوارح من غير أن يتغلغلوا إلى باطنه حيث بواعث الأعمال وخطرات القلوب، فأغفلوا جانب الروح وسريرة النفس، فالدين الإسلامي فيه علم الظاهر والباطن وكل منهما يحتاج إلى علم ومعرفة بأوامره ونواهيه فكما للجوارح أوامر ونواهي فكذلك للقلب، فالصوفية لم يقتصروا على الأخذ بظاهر الشرع وإنما أخذوا به ظاهراً وباطناً واعتبروا كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة وكل حقيقة غير مؤيدة بالشريعة غير محصولة بل من قواعد الصوفية المشهورة : كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة.

ويقول الإمام مالك رحمه الله: ((من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن إعتراض الصوفية على بعض الفقهاء لم يكن بسبب تقصير هذه الطائفة عن استنباط مثل هذه المعاني، وإنما لأن كثيراً منهم قد وقع في خفايا الآفات فالعلماء عند الصوفية هم أشد الناس عرضة لصفة الرياء لذلك قيل: من يعلمك بريائك وكلك رياء إلاّ الذين عافاهم الله فيعالجونك بما عالجهم به الله. فالتصوف ثورة ضد طغيان كل ما من شأنه أن يكون ذا طابع ظاهر أو مادي فلما ظهرت من بعض الفقهاء أخذهم بظواهر الأمور الدينية كان لا بد أن تظهر طائفة تجمع بين ظاهر الشرع وباطنه الشريعة والحقيقة فالتصوف أحدث نوعاً من التوازن الذي أثرى الحضارة الإسلامية.

ثانياً: أدوار التصوف:

إن التصوف منذ نشأته وتكونه مرّ بثلاث مراحل هي:

١- **دور النشأة:** وهي مرحلة الزهد وهي المرحلة الأولى في نشأة التصوف الواقعة في القرنين الأول والثاني الهجريين، فقد كان هناك أفراد من المسلمين أقبلوا على العبادة بأدعية وقربات وكانت لهم طريقة زهدية في الحياة تتصل بالمأكل والملبس والمسكن، وقد أرادوا بهذا العمل الآخرة فآثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك، ونضرب مثلاً لأولئك الحسن البصري المتوفى سنة١١٠هـ رحمه الله ورابعة العدوية المتوفاة سنة١٨٥هـ رحمها الله.

٢- **دور الكمال:** منذ القرن الثالث للهجرة نجد الصوفية قد عنوا بالكلام في حقائق أحوال النفس والسلوك وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم فصار التصوف على أيديهم علماً للأخلاق الدينية، وكانت مباحثهم تدفعهم إلى التعمق في دراسة النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها، وكذلك الكلام في المعرفة الذوقية وأداتها ومنهجها والكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها، وظهر الكلام في الفناء الصوفي خصوصاً على يد البسطامي رحمه الله، ونشأ من ذلك كله علم للصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية، له لغته الإصطلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم، وظهر هذا العلم كواحد من العلوم الشرعية بعد ظهور التدوين، كما يشير ابن خلدون قائلاً: ((فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من هذه الطريقة (أي الصوفية) في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الإقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في الرسالة والسُهروردي البغدادي في عوارف المعارف، فصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط)).

ومن ناحية أخرى نجد بعض شيوخ التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالجنيد البغدادي، والسري السقطي، والخراز وغيرهم رحمهم الله يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيتهم فتكونت لأول مرة الطرق الصوفية في المدارس التي يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علماً وعملاً.

ثم جاء الإمام الغزالي رحمه الله في القرن الخامس الهجري فلم يقبل من التصوف إلا ما كان موافقاً للكتاب والسنة ورامياً إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفس وإصلاح أخلاقها. ومنذ القرن السادس الهجري أخذ نفوذ التصوف في العالم الإسلامي يزداد بتأثير عظم شخصية الإمام الغزالي رحمه الله. وظهر صوفية كبار كونوا لأنفسهم طرقاً لتربية المريدين منهم الإمام أحمد الرفاعي المتوفى سنة٥٧٠هـ رحمه الله والإمام عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ رحمه الله وهما متأثران بتصوف الإمام الغزالي رحمه الله.

وفي القرن السابع الهجري أيضاً ظهر شيوخ آخرون ساروا على نفس الطريق أبرزهم الإمام أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ رحمه الله وتلميذه أبو العباس المرسي المتوفى

سنة٦٨٦هـ رحمه الله وتلميذهما ابن عطاء الله الإسكندري المتوفى سنة٧٠٩هـ رحمه الله، وهم أركان المدرسة الشاذلية في التصوف ويعتبر تصوفهم أيضاً امتداد لتصوف الغزالي رحمه الله.

٣- **دور التراجع والتدهور:** أصاب التصوف الإسلامي في عصوره المتأخرة منذ القرن الثامن الهجري تقريباً إلى العصر الحاضر شيء من التدهور فاتجه أصحابه إلى الشروح والتلخيصات لكتب المتقدمين، كما عنى أصحابه من الناحية العملية بضروب من الطقوس والشكليات أبعدتهم في كثير من الأحيان عن جوهر دعوتهم، وكثر أتباع التصوف في عصوره المتأخرة لكن لم يظهر من بين هذه الكثرة شخصيات لها ما لشخصيات التصوف الأولى من مكانة روحية مرموقة إلا القليل.

ولعل هذا كان راجعاً إلى ما سيطر على العالم الإسلامي في عصوره المتأخرة من ركود فكري أبان عصر العثمانيين، وعلى كل حال فإن إنحراف بعض الصوفية في بعض عصور التاريخ لا ينهض دليلاً على فساد دعوتهم.